عَوْدَةُ الحَضَارَة

إنـه مـن السنـن الأزليـة أن يعيـد
التاريخ نفسه كما تعيد الشمس كرتها
من نقطة الانقلاب .

نيتشه

الحضارة

ربما كانت مجرد كلمة نسطرها في كتبنا ، ونقرؤها ، ونمر بها ، وتعطي ما شاءت من مفاهيم داخل أذهاننا . ولكن لو أمعنا النظر ، وتفكرنا في هذه الكلمة ، لوجدناها تعبر عن مرحلة ، وصلت إليها البشرية بعد أن كافحت قروناً طويلة .

ومرَّت بأطوار مختلفة أدت لرفع الحضارة الإنسانية طوراً ، وخفضها أطواراً أخرى .

وما زالت الحضارة هكذا بين مد وجزر ، حتى وصلت إلى ما نشاهدها عليه اليوم من مدنيةٍ وتقدم وتطور في مجالات شتى ، إن صح التعبير .

ومن الممتع جداً أن نعرف كيف انتقل الإنسان من ذلك الكهف المظلم حتى وصل إلى البيوت الحجرية ، وناطحات السحاب ، مروراً بأنماط مختلفة من أساليب العيش والحياة .

وبصورة عامة : كيف انتقل الإنسان من الحياة الهمجية إلى الحياة المدنية المتطورة ، كما عبر فولتير عن ذلك : «أحب أن أعلم الخطوات التي سارها الإنسان في طريقه من الهمجية إلى المدنية » لأن هذه الخطوات لم تكن مفروشة لها الطرق ، ولم تكن سهلة أبداً .

فقد كابد الإنسان وعانى الكثير ، حتى إلى الحضارة . . هذه الحضارة التي تعبر عن النظام الاجتماعي الذي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي . .[١] ولكن لنتحفظ قليلاً على كلمة الثقافة ، فهي مفهوم واسع ومتعدد . . فلو أردنا مثلاً أن نعرّف الثقافة لواجهتنا تعاريف شتى ، وآراء مختلفة ، لا بأس من التعرض لها باختصار .

ففي الغرب ، يعرفونها على أنها تراث الإنسانيات الإغريقية اللاتينية ، أي مشكلتها ذات علاقة وظيفية بالإنسان ، فهي في رأيهم : «فلسفة الإنسان» .

وعند الاشتراكيين ـ عرّف (يادانوف) ـ في تقريره المقدم إلى الحزب الاشتراكي السوفييتي ـ عرّف الثقافة على أنها ذات علاقة وظيفية بالجماعة فهي عنده : فلسفة المجتمع .

وإذا حاولنا التعمق في هذه التعاريف وجدناها لم تحدد إلا فكرة عامة عن الثقافة دون تحديد لمضمونها ، وعلى هذا سنستعين بتعريف الأستاذ مالك بن نبي ، حيث عرّف الثقافة بأنها « . . مجموعة من الصفات الخلقية ، والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته ، وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه ، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته [٢]» .

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت ـ ج١ ، ص٣ .

(٢) شروط النهضة ـ مالك بن نبي ـ طبعة ١٩٧٩ ، صفحة ٧١ .

إذاً الثقافة هي الوعاء الذي يحوي كل ما يتعلمه الإنسان ، في محيطه منذ ولادته ، فتؤدي هذه المعلومات التي يتعرّف عليها ، إلى صقل شخصيته ، وطبعه بطابع خاص يميزه بين أفراد المجتمع . . هذا على مستوى الفرد . . وثقافة مجموعة من الأفراد تكوّن لنا ثقافة المجتمع ، وثقافة المجتمع هي التي يقع على عاقتها رفع المستوى البشري لإنتاج حضارة إنسانية متقدمة . .

ولكن هذه الثقافة قد شاهدنا أنها لم تستطع النهوض في بعض البلاد بالحضارة المتوقع قيامها بفضل هذه الثقافة . . لماذا ؟!

إن هذا الإخفاق للثقافة في إقامة الحضارة ربما يكون مرده لعوامل عديدة ، ولكن الأهم هو أنها فقدت شرطاً أساسياً لنهوضها هو الأمن والاستقرار . . فتخلص الإنسانية من الخوف ـ وذلك المارد الذي يسيطر على قلوب الناس سواء العاديين منهم أو المفكرين ـ هذا الخلاص يؤدي لنهوض وظهور الحضارة . . فالحضارة تبدأ حين ينتهي الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمِن الإنسان من الخوف ، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء ، وبعدئذٍ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضيّ في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها[١] .

فعندما عرف الإنسان الأول النار خاف منها ، ثم بدأ باستخدامها لأغراضه ، فألِفها وزال خوفه منها ، وبدأ بالاستفادة من تلك النار

---

(١) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ ج١ ، ص٣ .

وكيّفها حسب ما يريد لخدمة مصالحه . . وبدأ يبعث حضارته . . وقد وجدت في التاريخ وعلى مر العصور الكثير من الحضارات الإنسانية ، بعضها اندثر وبعضها الآخر ما تزال شواهده منتصبة إلى اليوم .

ولكن ما هي الحضارة ؟

إنها كلمة تثير التفاؤل ؛ لأنها تدل على طراز الحياة وعاداتها المعترف بأنها أفضل من سواها . ويرى الإنسانُ الحضارة في نفسه وفيما حوله ، وهي حالة نعيشها ، وقد أبدعناها ، وصنعناها .

وتنطوي كلمة الحضارة على صفة مدح ، وتحمل دلالات النبل والكرامة ، وَرَهَف العادات ، وسبل العيش . والإنسان المتحضر هو المهذَّب المثقف الودود الكيِّس المرهف الشعور . والاستعمال الذائع لكلمة حضارة يثير معاني الكمال والثقافة والتهذيب .

وتتصل الثقافة بالتغيرات المعقدة التي تحدث في حياة الأفراد والجماعات ، وتكون ثمرة عمل منهجي موصول ، يحققه التقدم والازدهار العقلي .

وفي كل الأحوال : تعني كلمة الحضارة أو الثقافة تقدماً وتفوقاً ، بل وكمالاً .

وقد نكون عادلين إذا قلنا إن معظم الحضارات إنما قامت وانبعثت بناءً على عقيدة دينية . . كما عبر عن هذا فالتر شوبرت في كتابه ـ أوربا وروح الشرق ـ فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا

في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعاً ومنهاجاً . . أو هي على الأقل تقوم أسسها على توجيه الناس نحو معبود غيبي ولو كان هذا غيباً من نوع زمني ، أو في صورة مشروع اجتماعي بعيد الأَمد ، مثل بناء مجتمع جديد يضع حجره الأول جيل وتواصل بناءه الأجيال المتتابعة[١] .

ومن هذه الحضارات التي قامت في يوم من الأيام الحضارة الإسلامية ففي وسط الصحراء نهضت في يوم مضى عظمةً ، ما عرف لها التاريخ مثيلاً .

«نهض النبي محمد ﷺ ، وكان من أعظم عظماء التاريخ ، وقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء »[٢] .

ونجح في تحقيق ذلك ، فقد كانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها ، متفرقة كلمتها ، وكانت عند وفاته أمةً موحدة متماسكة ، وقد كبح جماح التعصب والخرافات وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم ، ديناً سهلاً واضحاً قوياً ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة الإسلامية ، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مئة معركة وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة

---

(١) شروط النهضة ـ مالك بن نبي ـ صفحة ٥١ .
(٢) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ ج١٣ ، ص٤٧ .

ذات مكانة عظمى في نصف العالم[١] .

وقامت هذه الحضارة ومرّت بعصور ازدهرت فيها وبلغت ما بلغت من العلم والمعرفة ، وأصبحت بلاد المسلمين توزع العلم والنور إلى الغرب الذي كان غارقاً في الجهل والتبعية .

وأعقب هذه المرحلة المزدهرة أوقات عصيبة تعرّض خلالها الإسلام والمسلمون لمؤامرات شتى على أيدي طائفتين أساسيتين هما : اليهود والاستعمار ، وأدت هذه المؤامرات لإضعاف المسلمين ووصلنا لهذه الأيام .

فأصبحنا لا نملك حضارة ، وإنما نعيش على أطلال حضارة أقامها أجدادنا[٢] ، فاليوم أصبحت الخلافات والحروب منتشرة في كل بقاع العالم الإسلامي ، وكل هذا ما كان ليتم ويتحقق لولا جهود الاستعمار .

الاستعمار الذي أشعل الحروب والفتن بين أبناء الصف الواحد ، بطرق غير مباشرة ، ويبقى هو خلف الكواليس لا يراه أحد ، ويُسيِّر المختصمين على مسرح الحياة كيف يشاء .

ولعل الأستاذ مالك بن نبي قد أحسن بوصفه للاستعمار وكأنه يتبع طريقة بعض الألعاب الإسبانية « إنهم يلوحون بقطعة قماش

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) ثغرة في الطريق المسدود ـ د . سيد دسوقي ، د . محمود محمد سفر ـ صفحة ١٧ .

أحمر أمام ثور هائج في حلبة الصراع ، فيزداد هيجانه بذلك . فبدلاً من أن يهجم على المصارع يستمر في الهجوم على المنديل الأحمر الذي يلوح به حتى تنهك قواه » .

فالاستعمار يلوح ـ في مناسبات معينة ـ بشيء يستفز به الشعب المستعمر حتى يثير غضبه ، ويغرقه في حالة شبيهة بالحالة التنويمية ، حيث يفقد شعوره ويصبح عاجزاً عن إدراك موقفه ، وعن الحكم عليه حكماً صحيحاً ، فيوجه ضرباته وإمكانياته توجيهاً أعمى ، ويصرف من قواه دون أن يصيب بضربة صادقة المصارع الذي يلوح بالمنديل الأحمر . . .[1] . وهكذا حلَّ الضياع والتشتت بأبناء البلد الواحد . . والشعب الواحد . . وفقدنا روح المعلم الأول الذي كان يملك القوة السياسية القادرة على غرس القيم في كل حضارات عصره ، وتوحيد هذه البلاد تحت ظل عقيدة واحدة ، وأخذت تتقاذفنا الأمواج في الشرق والغرب في محاولة لتدمير أصالتنا ، وفرنجتنا ، ومررنا بأشكال استعمارية عديدة ، واغتصبت حضارتنا ، وأهينت كرامتنا ، وصرنا إلى ما نحن فيه من تمزق وتخلف وعصبيات مختلفة ما أنزل الله بها من سلطان .

ورأى الإسلامُ أن العصبية هي سبب إثارة الضغائن ، وبذر الأحقاد في النفوس ، فشنَّ حرباً لا هوادة فيها على العصبية ؛ لاقتلاع جذورها ، وآثارها ، وإحلال الأخوة والصفاء والوئام .

---

(١) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ مالك بن نبي ـ صفحة ٢٩ .

وركز القرآنُ الكريم على أهمية الرابط الإيماني بين المسلمين ؛ فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

كما دعا القرآنُ إلى نبذ الروح القبلية ، والتخلي عن الحمية الجاهلية ، قال عز وجل : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح : ٢٦] .

ودعا رسولُ الله ﷺ إلى إقصاء العصبية عن النفس والمجتمع ، فقال ﷺ : « **مَنْ قاتل تحت راية عِمِّيَّة يقاتل لعصبة ، أو يغضب لعصبة ، فَقِتْلَتُهُ قِتْلَةٌ جاهلية** »[1] .

وفي خطبته ﷺ يوم فتح مكة قال : « **يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب** ». ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وهكذا نجد الإسلام قد حاصر العصبية القبلية ، وتصدَّى لها في شتى مناحي الحياة ؛ ليقطع أوصالها ، ويستأصلها ؛ لما تجره من الآفات الاجتماعية ، والخصومات الدامية ، والحزازات الدائمة .

واستطاع أعداء الإسلام زرع الفتن الداخلية ، وأبعدونا عن روح الإسلام ، وعن أفكاره الأساسية ، فتمزق الشمل ، وعادت

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٩٦) ومسلم (١٨٤٨/ ٥٤) والنسائي (٧/ ١٢٣) .

العصبيات العمياء ، والأفكار الغبية لتأخذ دورها ، وابتليت الحضارة الإسلامية بفئة من الناس لم نستطع أن نصنفهم مع المثقفين ولا مع الجهّال ، وهؤلاء هم من سماهم مالك بن نبي «المتعالمون» الذين يدعون إلى العلم والثقافة والمعرفة بأساليبهم الخاصة ، وفي حقيقتهم ما هم إلا وجه آخر من وجوه المؤامرة ، مِعْوَل يهدم أسس الحضارة ، ويحاول تشويه التاريخ المضيء الذي مررنا به فيما مضى ، وتحاول أن تنسب كل تقدم في الدول المتطورة صناعياً إلى هذه الدول ، وتناسوا فضل العرب المسلمين في يوم من الأيام على الحضارة الغربية ؛ التي نهلت ولفترة طويلة من علوم الحضارة الإسلامية ومن منابع الفكر الغزيرة فيها ، حتى قال قائلهم : «سيدهشنا أن نعلم كم مخترعاً من ألزم مخترعاتنا لحياتنا ، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي ، ومما لدينا من علوم وآداب ،وما لنا من فلسفة ودين يرتد إلى مصر والشرق»[١] .

وتتابعت المحاولات الماكرة لتدمير أساسنا الحضاري ومحو كل وجود للحضارة الإسلامية ، وقد استطاع هؤلاء الوصول لبعض مآربهم ، وما وصلوا إلا عبر ضعفنا وتشتتنا وضياعنا ، فصوّر هؤلاء للعالم أن الإسلام دين تخلف ، ليس فيه إلا معبود غير ظاهر ، وصلاة وصيام ، واتكال على الغير ، والرضا بقسوة الحياة ، وانتظار الفرج من السماء ، وبهذه الأفكار نالوا من بعض الناس ، فأصبحنا

---

(١) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ ج١/ ط .

اليوم نعيش على أنقاض حضارة أجدادنا ، وأصبحنا نرى مسلمين دون إسلام ، أو هياكل كرتونية فارغة .

وتتابعت ادعاءات وتخرصات الكاذبين حول الإسلام ، ومضوا في تشويه صورته ، وألصقوا بالإسلام افتراءات هو منها براء ، فكم سمعنا من يردد أن الدين أفيون الشعوب ، والإسلام دين جمود ، والإسلام سبب التخلف والانحطاط . وكم تطالعنا عناوين لكتب أنيقة قد حشيت بالسموم الهادفة لتدمير الإسلام .

ولا أظننا نبالغ إن قلنا أن هذه المؤامرات هي مؤامرات عالمية على مستوى رفيع ، تمت في لقاءات بين أعلى المستويات في الشرق والغرب ، وكان الفارس المقنع في هذه المؤتمرات والمؤامرات اليهودية العالمية وأنصارها ، والاستعمار بشتى أشكاله ، وبمختلف صوره .

وهكذا اجتمع هؤلاء ، وبدؤوا محاولاتهم للسيطرة على البلاد ونشر الجهل والتخلف فيها ، وإغراقها في ظلمات لا نور بعدها أبداً ، كما ظنّوا ، ولكن . . ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٣٢] .

وهذه المحاولات الاستعمارية التي مرَّت بنا ، وما تزال ، غنية عن التعريف ، فنحن لم نتخلص من هذا الاستعمار إلا من فترة قريبة ، وما زال الكثيرون من إخوتنا يرزحون تحت وطأة الحكم الاستعماري ولم يستطيعوا التخلص منه .

وقد عاد الاستعمار من جديد ، بجيوشه وأساطيله ، وأسلحته التدميرية ، باسم محاربة الإرهاب ، واحتلوا أرضاً عربية تحت سمع العالم وبصره ، بل بمساعدة دول كثيرة ، تآزرت فيما بينها لمحاربة الدين الإسلامي .

ونحن نطمح كما تخلص بعضنا من الاستعمار أن نتخلص من القابلية للاستعمار ـ كما يسميها الأستاذ مالك بن نبي ـ سواء الاستعمار المادي أو الفكري ؛ لكي نستطيع الابتعاد عن السيطرة الخارجية بكافة صورها ، ولنعتمد على أنفسنا للنهوض من جديد ، وبعث أمجاد أمتنا .

والاستعمار والمتآمرون لا يخافون المسلمين إلا عندما يبدؤون بالتفكير والتفكر ، وقد آن الأوان أن نعود خير أمة أخرجت للناس .

ولكن هذا ليس بالأمر السهل ، فهو يحتاج لكفاح شجاع منظم ، وليس عشوائياً ، مع الانتباه للابتعاد عن كل مظاهر العنف غير المجدي ؛ لأنه يُوقع فيما لا تُحمد عقباه ، ويعود علينا بالشر والضرر .

فنحن إذاً بحاجة للشعور بروح التحدي ، نحن بحاجة لشحن الفعالية الروحية للأمة ، وهذا لا يقوم به إلا النفر القدوة الذين أخلصوا في عملهم لأمتهم للنهوض بها من مستنقع الجهل والتخلف .

وهؤلاء النفر القدوة مطلوب منهم فعالية حقيقية ، فلن نرهق

الشيخ الكهل بها ولا الأطفال الصغار ، فالاعتماد على الشباب ، ونحن نطلب من الشباب أن ينظروا إلى الأمور كلها بمنظار سوي للتحقق مما يثار حولهم عن الإسلام ، وألا تبهرهم بهرجة الغرب وإباحية الشرق ، وألا يأخذوا كل أمر جديد بفرحٍ وشغف ، ثم يندموا ساعة لا ينفع الندم . وعلى هذا سنحاول توضيح موقف الإسلام من العقل والعلم والمرأة و ، و . . معتمدين على ما ورد في دستور الإسلام ـ القرآن الكريم ـ والأحاديث الشريفة ، وكتابات المؤرخين العادلين ؛ الذين استطاعوا أن يميزوا بين الخيط الأبيض والخيط الأسود في زمن اختلطت فيه الأمور ، وانقلبت الموازين ، واختلت القيم .

لقد آن للإسلام أن يخرج من قفص الاتهام ، وآن للمعركة أن تنقل لأرض الأعداء ، ولا ننتظر الهجوم للرد عليه ؛ لأنه كما قال علي رضي الله عنه : «ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا» .

وعليه لن أستعرض الحضارة وشروطها وما إلى ذلك ، وإنما سأوضح أن الإسلام إنما جاء محرراً للعقل من جموده ، وقد نزل هادياً للعقل في جميع الأمور التي لو ترك فيها العقل وشأنه لضل السبيل ، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة ، وهذه الأمور هي :

١ ـ العقائد .

٢ ـ المبادئ الأخلاقية إجمالاً وتفصيلاً .

٣ ـ التشريع في قواعده العامة ، وفي بعض تفصيلاته ، وقواعده

العامة التي تتضمن الجزئيات ، على مر الزمان ، وعلى اختلاف البيئات[١] .

وجاء الإسلام محرضاً على العلم والتعلم والنهوض بالأمم ، وإعطاء الإنسان حقوقه المختلفة ، والحكم بالعدل و ، و . . .

أما الطبيعة والكون : من سمائه وأرضه ، ومن جباله وبحاره ، ومن كواكبه وأقماره وشموسه ، أما المادة والطاقة ، أما أعماق البحار وآفاق السماء . إن كل ذلك قد تركه للإنسان يدرسه في مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته ، وحثه على أن يجول في ذلك ما استطاع إليه سبيلاً ، حتى يكتشف سنن الله الكونية ، ونواميسه الطبيعية ، ويرى صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ولن يحجر الدين على الإنسان في هذا المجال[٢] .

وهذا أمر بالغ الأهمية بالنسبة لنا ، فالإسلام واضح في دعوته للتفكير والاستطلاع دائماً ، وهذا ما يجب أن نركز عليه ، وسيمر معنا لاحقاً .

فعلينا التنبه من غفلتنا لاستعادة الأمجاد الماضية ، وهذا كما قلت يحتاج لوعي وتفكير ومجاهدة حقيقية ، والذي يهمنا هنا هو توضيح بعض الأمور وموقف الدين منها ؛ ليتبين الكلام الحق ،

---

(١) الإسلام والعقل ـ الإمام عبد الحليم محمود ـ صفحة ٣٠ .
(٢) المرجع السابق نفسه .

ويتضح في أذهان الكثيرين .

فعودة إلى العقل والحكمة أيها الشباب ، وترفعوا عن توافه الأمور ، واعلموا أن العقول مستويات ، عبّر عنها الدكتور محمد حسنين هيكل بقوله :

« العقول الكبيرة تبحث عن الأفكار ، والعقول المتفتحة تناقش الأحداث ، والعقول الصغيرة تتطفل على شؤون الناس » .

فلتكن عقولنا باحثة عن الأفكار ، مناقشة للأحداث ، للوصول إلى الحقيقة ، إلى اليقين ، إلى النور الإلهي المبين .

ولا نغمط الدين حقه . . ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٢] .

* * *